استخراج الجدال من القرآن الكريم

ابن الحنبلي

To PDF: http://www.al-mostafa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الهمَّ يسرْ وأعنْ يا كريمُ

المقدمة

قال الشيخ الإمام ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الأنصاري ابن الحنبلي، الحمد لله الحاوي كتابه أنواع العلوم، الدالّ أمره على الموجود والمعدوم، المشرِّفُ خطابه لذوي العقول والحلوم، الضارب الأمثال لأرباب الألباب والفهوم، القاضي بالحق والفاصل بين الظالم والمظلوم يوم اجتماع الخصوم، مبرم الأمور بقضاءٍ محتومٍ، مترل الماءَ بقدرٍ معلومٍ، ومعلم الإنسان البيان في الأمر المظنون والحكم المجزوم، شارع السبيل المأمون من الكتاب المصون على لسان النبي المعصوم، أحمده حمداً غير منقوص ولا مهضوم، وأؤمنُ به إيماناً غير مظنونٍ ولا موهومٍ، وأشهد أن لاَّ إله إلا اللهُ وحده لا شريك له شهادةً تقي حر نار السموم، وتفي تكفير ذنب المأثوم، وأشهدُ أن محمداً عبدهُ ورسولُه الحاكم بشرعه على كل حاكم من البرية ومحكوم، المفضل جمعه على كل مفردٍ من الخلق وملموم، صلى اللهُ عليهِ وعلى آله وأصحابه الذين لا تحصى فضائلهم بمنثورٍ ولا منظومٍ، ولا تُجهلُ مآثرهم إلى يوم الوقت المعلوم.

"وبعد" فإن الفقهاءَ رضي الله عنهم أرباب النظر والمحرزين أدلة العبر، قد أَلَّفُوا في مذاهب الجدال ما يتضمن تحرير الاستدلال وتقرير الجواب والسؤال ألاَّ أن الأمر الاصطلاحي منقوض بمثله وربما نُسِخَ اصطلاحاً اصطلاح بوعره عند قومٍ أو بسهله، والمذهب الذي يرسخ ولا ينسخُ ويعلو فرعه ويشمخ ما كان مجناه من حبات القلوب، وسُقْيَاهُ من الشراب الطهور المنقى من العيوب، الكاشف لأسرار الغيوب"لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تتريلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد". وقد استخرت الله تعالى في استنباط طريقٍ من طرقه، وإسكان بعض القاصدين لهذا الفن غرفةً من غرفهِ، وهذا الكتاب يشتمل على ثمانية أبواب، لكل بابٍ فضل في فصل الخطاب، ولكنه وقف على ذوي الحلوم والألباب، ومشارع هذه الأبواب من الكتاب المعصوم من الزلل والارتياب.

"الباب الأول": في ذكر الجدل في الكتاب العزيز والممدوح منه والمذموم.

"الباب الثاني": أول من سن الجدال.

"الباب الثالث": جدال الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه للأمم.

"الباب الرابع": ذكر الأدلة وأنواعها على وجود الصانع سبحانه.

"الباب الخامس": ذكر الأدلة على أنه واحدٌ.

"الباب السادس": ذكر أدلة البعث.

"الباب السابع": ذكر الأدلة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن العزيز.

"الباب الثامن": في السؤال والجواب ونكتٍ من الجدال فهذه ثمانية أبوابٍ، وعلى توفيق الله سبحانه وتعالى الإحالة بالصواب.

الباب الأول

في ذكر الجدل والحجة

في ذكر الجدل والحجة:

اعلم أن الله سبحانه ذكر لفظة الجدل وما تصرف منها في كتابه العزيز في تسعة وعشرين موضعاً- ولفظه الحجة وما تصرف منها في سبعة وعشرين موضعاً ولفظة السلطان أيضاً في ثلاثةٍ وثلاثين موضعاً الجميع المراد به الحجةُ سوى موضعٍ واحدٍ في الحاقة: "هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةْ" وقيل: المراد به الحجة، فأما الجدل فهو مذمومٌ في كل موضعٍ ذكر إلا في ثلاثة مواضع: "أحدها": في النحلِ:"ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادِلْهم بالتي هَي أحسن". "الموضعُ الثاني": في العنكبوتِ: "ولا تُجادِلُوا أهلَ الكتابِ إلاَّ بالتي هَي أحسنُ". "الموضعُ الثالثُ": في المجادلةِ: "قَدْ سمعَ اللهُ قولَ الّتي تجادلكَ في زَوْجِها"، وهذه المرأةُ هي خولةُ بنتُ ثعلبةَ الأنصارية، كانت تحتَ زوجِها أوسِ بنِ الصامتِ والقصةُ مشهورةٌ. فأما قوله سبحانه: "وَجَادِلْهُمْ بالتي هيَ أحسنُ" فيحتمل أن يكون المرادُ بالأحسن الأظهر من الأدلة. ويحتمل التعجيز عن الإتيان بمثل القرآن، لأنه أحسن الأدلة نظاماً وبياناً وأكملها حسناً وإحساناً وأرجحها من الثواب ميزاناً وأوضحها على اختلاف مدلولاتها كشفاً وبرهاناً. ويحتمل الإصغاءُ إلى شُبههم والرفق بهم في حلها ودحضها. ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم لتكون عليهم الحجة أظهر والجحد منهم أنكد وهي سنة الأنبياءِ عليهم السلام، مع الأمم عند الدعوة. والمجادلة من ذلك لما قالوا لمحمدٍ " مجنونٌ. قال:"وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ"، أي: جنونٌ من غير أن يقابلهم على ذلك بقولٍ خشنٍ مع النخوة العربية والعزة الهاشمية. وقالوا لنوح عليه السلام: "إنْ هُوَ إلا رَجُلٌ به جِنَّةٌ ... قالَ رَبِّ انصُرْني بما كذَّبُون"، وقالوا له: "إنَّا لنراكَ في ضَلاَلٍ مُبينٍ قالَ يا قومِ ليسَ بي ضَلالةٌ ولكنِّي رسولٌ منْ رَبِّ العالمين". وقالوا لصالح: "إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى على اللهِ كذباً... قالَ رَبِّ انصُرْني بما كذَّبون"، وقالوا لهود: " إنَّا لنراكَ في سَفَاهةٍ وإنَا لنظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبينَ. قالَ يا قومِ ليس بي سَفَاهَةٌ ولكنِّي رُسولٌ منْ رَبِّ العالمينَ" فلو قابلهم الأنبياءُ بغلظةٍ لنفرت طباعهم وانصرفت عقولهم عن التسديد لما قالوا والتدبر لما جاؤوا به من البينات، فلم تتضح لهم المحجة، و لم تقم عليهم الحجة، وشاهدُ هذه الحالة قوله تعالى: "وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ".

الباب الثاني

في أول من سن الجدَال

أول من سن الجدال الملائكة صلوات الله عليهم حيث قالوا: "أَتَجَعلُ فيها مَنْ يُفْسدُ فيها وَيَسْفكُ الدِّمَاءَ ونحنُ نُسَبِّحُ بحمدكَ ونُقَدِّسُ لكَ قالَ إني أعْلَمُ ما لا تعلمونَ". وهذا منهم استدلال بالترجيح والأولوية، أي: من سبح وقدس لك هو أولى بالإيجاد والجعل فيها ممن يفسد فيها ويسفك الدماء، وكان جواب الله لهم الترجيح أيضاً من جهةٍ أُخرى ولهذا لم يرد عليهم قولهم، إذ قد علم سبحانه أن الذي ظنوه فيهم ووصفوهم به كائن بل عدل الله سبحانه إلى أمر مجملٍ فقال: "إنِّي أَعْلَمُ ما لاَ تَعْلَمُونَ" من ترتيب خلقي وتدبير صنعي المحوط بالحكمة الدال على القدرة فإني خلقت الملائكة من نورٍ لا ظلمة فيه، فكان منهم الخير المحض بإرادتي، وخلقت الشياطين من ظلمة نار السموم وهو المارج، فكان منهم الشر المحض بإرادتي، وخلقت آدم وذريته من نور وظلمةٍ، فكان منهم الخير و الشر بإرادتي، ووضعت فيهم عقلاً يرشد إلى المصالح، ونفساً ميالةً إلى الهوى المُردي، وأمددت الفريقين بجندين يسوقان العقل والنفس إلى ما سبق من التقدير الناشئ عن علم التدبير، وكان حكمي في هذين الفريقين أَنَّ من غلب عقله على هواه فهو من الناجين، ومن غلب هواه على عقله فهو من الهالكين وهذا ما اشتمل عليه قوله تعالى: "إنِّي أعْلَمُ ما لا تعلَمُونَ". ومما اشتمل عليه "إنِّي أعْلَمُ ما لا تعلَمُونَ" أن اختلاف الصنائع أول دليلٍ على قدرة الصانع،ومما اشتمل عليه "إنِّي أعْلَمُ ما لا تعلَمُونَ" أني ركبتُ فيهمْ منَ الشهوةِ ما لو ركَّبته فيكم لفعلتمُ فِعلهم أو لم تطيقوا صَبْرهم على أنهم قد أحبوني محبةً بذلوا فيها أبدانهم للتمزيق، ودماءهم للإراقةِ، وأرواحهم للذهاب، ومنهم الصابرونَ على أنواع المكارهِ ، والصائمونَ في الهواجرِ،والعابدونَ على ضعف القوى، والناهون نفوسهم مع قوةِ الهوى، ويرونَ ذلكَ المرّ حلواً في رضائي، وتسليماً لقضائي وقدري، يسابقُ كلُّ وليٍّ منْهم بالعبادةِ أجلهُ، يؤتونَ ما أُتوا وقلوبهم وَجلةُ، فظهرت حكمة الله عز وجل في خلقهم، ورجحت حجة الله سبحانه على الملائكة في قدحهم. فأما إبليس فهو أول من اظهر الخلاف وركب العناد وسار به في البلاد. والفرق بينه وبين الملائكة أن الملائكة لم يظهر منهم خلاف ولا عصيان، بل طلبوا بسؤَالهم الإيضاح والبيان. وإبليس أفتى ودلَّ في مسألته فانقطع في مجادلته وخسر في كَرَّته وبيان فساد تعليله، وإزاغته عن الصواب في تأويله. أنه قال:"خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" ومعناه: أن النار

جوهرٌ لطيفٌ شفافٌ له قوة الإشراق وسلطان الإحراق، والطين جسمٌ مظلمٌ كثيفٌ، ليس باللطيف ولا الخفيف. والسجود خدمة يتضمن تعظيم المسجود له والأَوْلى بها الأعلى منهما، هذا منتهى كلامه ومضمون قوله وهو مردودٌ عليه من وجوه: "منها": أنه عارض النص بالقياس وهو فساد في الاعتبار وعدم استبصار؛ لأن العمل بالنص مقدم على القياس؛ لأن سهام القياس تصيب مرة وتخطئ أُخرى. وكلام المعصوم المتره عن الغلط والزلل لا يخطئُ. "ومنها": أن الماء والتراب والهواء والنار أصول الأجسام وموادُّ المركبات. فلا يقوم جسم إلاَّ باجتماعها، وإذا كانت متكافئة في التأثير فاختصاص أحدها بالأفضلية لا دليل عليه. "ومنها": أن الطين اشتمل على أصلين من الأصول الأربعة وهما: الماء والتراب، فكيف يكون اصل واحدٍ منهما خيراً من أصلين متكافئين. وعلى تقدير تسليم التفاضل فالماء افضل؛ لأن سلطانه يقهر سلطان النار إذا التقيا. "ومنها": على تقدير صحة قياسه فالترجيح للسجود من وجهين: "أحدهما": أن مصلحة امتثال الأمر راجحةٌ على الامتناع؛ لأن امتثال الأمر آمن من العقاب المرتب على المخالفة. "الوجه الثاني": أن الامتناع من السجود بهذا التعليل المذكور من جهته يلزم منه تخطئة الأمر إلى وضع الشيء في غير موضعه، وذلك في غاية الجناية على الإله الحكيم. وقد قال بعض المتكلمين: إن كل شبهةٍ وقعت في الملل فأصلها من شبهتي إبليس. قال المصنف: بل هي شبهةٌ واحدةٌ مطردةٌ في كل مذهب فاسدٍ وقد ذكرنا ذلك في كتاب البروق. وأما الحجة فهي عبارة عن دليل الدعوى وقد تطلق على الشبهة أيضاً؛ لأنها مستند المخالفة. قال الله تعالى: "حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ" ، وقال تعالى: "لِئَلاَّ يُكونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"، وقوله تعالى: "فللَّهِ الحجةُ البالغةُ" أي الدليل القاطع الذي لا يعارضه معارض، وذلك قوله تعالى: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتيناهَا إبراهيمَ عَلَى قومِهِ"، وقد قيل في قوله تعالى إخباراً عن إبليس"ومَا كانَ لي عليكُم مِنْ سُلْطَانٍ" أي حجةٍ وإنما غرهم بالشبهةِ فالحجة حقيقةٌ في الدليل مجازٌ في الشبهةِ ّ َاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"، وقوله تعالى: "فللَّهِ الحجةُ البالغةُ" أي الدليل القاطع الذي لا يعارضه معارض، وذلك قوله تعالى: "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتيناهَا إبراهيمَ عَلَى قومِهِ"، وقد قيل في قوله تعالى إخباراً عن إبليس"ومَا كانَ لي عليكُم مِنْ سُلْطَانٍ" أي حجةٍ وإنما غرهم بالشبهةِ فالحجة حقيقةٌ في الدليل مجازٌ في الشبهةِ.

الباب الثالث

في جدال الأنبياء عليهم السلام للأمم

في جدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للأمم أولهم: جدال نوح عليه السلام: قال: "استغفرُوا ربَّكُم إنَّه كانَ غفاراً. يرسلِ السماءَ عليكُم مدراراً. ويمددكم بأموال وبنينَ ويجعلْ لكُم جناتٍ ويجعلْ لكم أنْهاراً. ما لكُم لا ترجونَ للَّه وقاراً. وقد خلقكُمْ أطواراً. ألمْ تَرَوا كيفَ خلقَ اللُّهُ سبعَ سماواتٍ طباقاً. وجعل القَمر فيهنَّ نوراً وَجَعَلَ الشمسَ سِرَاجاً. واللهُ أنَبَتكُم مِنَ الأرضِ نباتاً. ثم يُعيدُكم فيها ويخرجُكُم إخراجاً. واللُهُ جَعَلَ لكُم الأرض بِسَاطاً لتسلكُوا منها سُبُلاً فجاجاً"، وقال تعالى: "ولقدْ أرسلْنَا نوحاً إلى قومِهِ إني لكُم نذيرٌ مبينٌ. أن لا تعبُدُوا إلاَّ الله إني أخَافُ عليكُم عَذَابَ يومٍ أليم. فقال الملأ الذينَ كفرُوا منْ قومه ما نراكَ إلا بَشَراً مثْلَنَا وما نَرَاكَ اتَّبعكَ إلاَّ الذينَ هُمْ أراذلُنَا باديَ الرأي وما نَرَى لكُم عَلَيْنَا منْ فَضْلٍ بلْ نَظُنُّكُم كاذبين" أجابهم نوح عليه السلام بالحجةِ العظمى فقال: "يا قومِ أرأيتُم إنْ كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي" إلى هنا هي الحجة العظمى، وهذه الحجة العظمى هي التي أضافها الله عز وجل إلى نفسه في قوله:"وتلكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيمَ على قومِه" وقد أشبعنا القول فيها في كتاب الحجة العظمى. "قالوا يَا نوحُ قد جادلْتَنَا فأكثرتَ جدالَنَا فأتنا بِمَا تَعدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصادقِين". جدالُ إبراهيمَ وحجاجه وله ثلاثة مقامات "الأول": مع نفسه. "الثاني": مع أبيه. "الثالث": مع نمرود وقومه. "الأول": رَأَى كوكباً قالَ هذا ربي إلى آخر القصة. وجهُ استدلاله أنه رأى إنارةَ الكوكب وحسنهُ وعُلوّ مكانه و لم ير قبله مثله، فقال: هذا ربي، بناء على أن الرب لا ينبغي أن يكون له مثل، فلما أفل أدرك نقصهُ وعيبه؛ لان الأفول تغير، والتغيرُ حدوثُ والكامل لا يجوز عليه الحدوث؛ لأنه صانع الحدوث وطرد القياس في الإثبات والنفي على باقي الكواكب بالاعتبار الأول، ومن حيث علم أنها مكونة مصنوعة علم أنها لا بد لها من صانع هو أكملُ منها فقالَ: "وَجَّهْتُ وَجهيَ للذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ" ليدخل في ذلك الكواكب التي اعترضته في طريق الاستدلال. "المقام الثاني مع أبيه": قال الله تعالى: "وَاذْكُر في الكتابِ إبراهيمَ إنَّهُ كان صدِّيقاً نبياً. إذ قالَ لأبيه يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالا يسمعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عنكَ شيئاً. يا أبتِ إنِّي قدْ جاءنِي مِنَ العلمِ ما لم يأتكَ فاتَّبِعْني أهدكَ صراطاً سَوِياً. يا أبتِ لا تعبدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان للرحمنِ عَصياً. يا أبتِ إني أخافُ أنْ يَمسَّكَ عذابُ مِنَ الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وَلِيّاً. قال أراغِبٌ أنت عَنْ آلهتي يا

إبراهيم لئن لم تنته لأرجُمَنَّكَ واهجُرني مَليّاً". فكان جواب أبيه جوابَ جاهلٍ، لانه قابله على نُصحه لهُ بالرجمِ والهجر أشبه جواب قومه، وما كانَ جوابَ قومه إلا أن"قَالُوا حَرِّقُوُه وانصُروا آلهتكم". "المقام الثالث": مع النمرودِ وقومه وهوَ قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ في رَبِّه أَنْ آتَاهُ الُلهُ الملكَ إذ قَالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الذي يُحي ويميتُ قالَ أنا أحيي وأميتُ قالَ إبراهيمُ فإنَّ الله يأتي بالشمسِ مِنَ المشْرِقِ فأتِ بها من المغْربِ فَبُهتَ الذي كَفَرَ واللهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ". فالصادرُ مْن خَصْمه معارضة إلا أنها فاسدة، لانَّ حقيقةَ الإحياء والإماتة التي فسرها خصمه غير الذي قَصده إبراهيم، فلا يخلو حال نمرود إما أن يكونَ ما فهم حقيقة الإحياء والإماتة، أو فهم إلا أنه قصد المصادمة والمباهتة، وكلاهما يوجب العدولَ إلى دليلٍ يفضحُ معارضته ويقطعُ حجاجه، ومتى كان الخصم بهذه الصفة جاز لخصمه الانتقال إلى دليلٍ آخر أقرب إلى الفهم وأفلج للحجة، وسيأتي نظيره في قصة موسى عليه السلام، قال الله تعالى: "وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحَاجونِّي في اللهِ وَقَدْ هَدَانِ" وذكر الحجة العظمى فقال: "وَكَيْفَ أَخَافُ" إلى قوله: "فأيُّ الفَريقينِ أَحَقُّ بالأمْنِ" وقد شرحنا هذا في كتاب الحجة العظمى. فإن قيل ما الحكمة أنه جادل الملك بالإحياء والإماتة والإتيان بالشمس من المشرق وكل ذلك يمكن دعوى المعارضة له

والكلام عليه، و لم يدعه بالحجة العظمى وجادل قومه بالحجة العظمى، فالجواب أن الملك كان يدَّعي الربوبية، فلا يقال انه لا يخلو إما أن يكون لنا إله أو لا بخلاف حال قومه فإنَّهم لم يدَّعُوا ربوبيةً.لام عليه، و لم يدعه بالحجة العظمى وجادل قومه بالحجة العظمى، فالجواب أن الملك كان يدَّعي الربوبية، فلا يقال انه لا يخلو إما أن يكون لنا إله أو لا بخلاف حال قومه فإنَّهم لم يدَّعُوا ربوبيةً.

جدال موسى عليه السلام قال الله سبحانه: "فَأْتيا فِرْعَونَ فقولاَ إنَّا رسولُ رَبِّ العالمينَ" إلى أن قال سبحانه: "قَالَ فِرْعَونَ وَمَا رَبُّ العالمين. قالَ ربُّ السموات والأرضِ وَمَا بينهُما إنْ كُنتم مُوقنينَ. قالَ لمن حَوْلَهُ أَلا َتستمعُون. قالَ رَبَّكُم وربُّ آبائِكُمْ الأولين. قالَ إنَّ رسولَكُم الذي أُرْسِلَ إليكُم لمجنُونُ. قالَ رَبُّ والمشرقِ والمغربِ وَمَا بَينهُمَا إنْ كنتم تعقُلونَ . قال لئِنِ اتخذْت إلهاً غَيْري لاجعلنَّكَ مِنَ المسجُونينَ. قالَ أَوَ لَوْ جئتكَ بشيءٍ مُبين. قالَ فأتِ به إن كنْتَ مِنَ الصَّادقينَ فَألقى عَصَاهُ فإذا هَي ثُعْبانٌ مبينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فإذا هيَ بيْضَاءُ للناظرينَ" والإشارةُ إلىَ وجْه الدلالةِ منْ ذلكَ أنَّ فرعونَ لما قال: "وَمَا رَبُّ العالمينَ"علمَ موسى أنهُ سؤالُ عنْ ماهية ربَّ العالمينَ، وربُّ العالمين لا ماهية لهُ، لانهُ الأول فلا شيءَ قبله فيكونُ منهُ، بلْ هوَ مكِّونُ ما تتكونُ الأشياء منهُ، فلمْ يشتغلْ مُوسى برِّد سؤاله وبيانِ فساده، وكانَ المقصودُ تعريفَ الربَّ جلَّ وعلاَّ بصفته فقال: "رَبُّ السمواتِ والأرض وماَ بينَهما" فحصرَ الكائناتِ في ثلاث كلمات فلما قال: "أَلا تستَمعونَ. قالَ ربكُم وربّ آبائكم الأولين" رداً على فرعونَ قوله "أنا رَبُكُم الأعلىً" فلما قالَ: "إن رسولَكم الذي أُرسِلَ إليكم لمجنون" أردفَ ما ُذكرَ بشاهديْنِ آخرينِ فقالَ:

"رَبُّ المشرِق والمغربِ ومَاَ بينَهما"؛ لانَّ المشرق والمغربَ آيتانِ عظيمتانِ لا يقدرُ فرعونُ على ادُّعائِهما، فلَّما اندحضتْ حُجَّتُهُ قال: "لئن اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْري لاجعلنَّكَ منَ المسجُونيَنَ. قالَ أَوَ لَوْ جئتكَ بشيءٍ مُبينٍ. قالَ فأتِ بهِ إن كنْتَ منَ الصَّادقينَ فَألقى عَصَاهُ فإذا هَي ثُعْبانٌ مبينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فإذا هيَ بيْضَاءُ للناظرينَ" آيتان عظيمتان في انقلاب اعيانهما، وإنما كانت الآية في العصا؛ لأنها أنزلت على آدم بسبب الكلب لما نبح عليه لما تعاظمت دعوى فرعون قوبل بها إهانةً له واستحقاراً، وكونها ظهرت في صورة ثعبانٍ مناسب لحاله؛ لأن مسها لين وفعلها قاتل.وفرعون بإظهار كرمهِ وعدلهِ لينٌ وفعله قاتلٌ لنفسهِ وغيرهِ. فأما يدهُ البيضاءُ فالإشارة فيها جئتكَ بالشرع النير الأبيض الذي لا ظلمةَ فبه، كما قال رسول الله "جئتكم بها بيضاءَ نقية" ولما كانت آية موسى عليهِ السلامُ حِسِّيةً، ومعجزاتهُ مرئيةً لم يخاطبهمْ بالحجةِ العظمى؛ لأنها عقلية، ولما همُّوا بقتله الهم اللهُ سبحانهُ مؤمنَ آلِ فرعون الحجة العظمى فقال: "أتقتلونَ رجلاً أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ وقدْ جاءَكُمْ بالبيناتِ من رَبِّكُم وإنْ يَك كاذباً فعليهِ كَذِبُهُ وَإنْ يَكُ صادقاً يصبْكُمْ بعضُ الذي يعدُكُم" وقد شرحنا ذلك في كتاب الحجة العظمى. وأما جدال رسول الله " لكفار قريش واليهود فسيأتي في ذكر الأدلة الدالة على صِدْق رسالته.

الباب الرابع

في ذكر الأدلة على وجود الصانع سبحانه

في ذكر الأدلة على وجود الصانع سبحانه: أعلم أنها لا تحصى لأن كل موجودٍ عن عدم فهو دليل على وجود موجدٍ كما قال سبحانه: "وَإنْ مِنْ شيءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ" وذلك التسبيح إذعان لموجده وعبادةٌ لربه كما قيل:

وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ   تدلُّ على أنهُ الواحدُ

فأما أدلة الكتاب العزيز فمنها قوله تعالى: "أفَلاَ يَنْظُرُونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلقَتْ. وإلى السَّمَاءِ كيفَ رُفعَتْ. وإلى الجبالِ كيفَ نُصبتْ. وإلى الأرضِ كيفَ سُطِحَتْ. فَذَكِّرْ إنما أنتَ مُذَكِّرٌ"، وقال تعالى: "ألم نجعلِ الأرضَ مهَاداً. والجبالَ أوْتَاداً. وَخَلَقْنَاكمْ أزواجاً. وجعلنا نومَكُمْ سُبَاتاً. وجعلْنَا الليلَ لباساً. وجعلْنَا النهارَ معاشاً. وَبَنَيْنَا فَوْقَكمْ سَبْعاً شِدَاداً. وجعلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً. وأنزلْنَا من المعصِرَاتِ مَاءٍ ثجاجاً. لنُخرِجَ بِهِ حَبّاً ونباتاً. وجَنَّاتٍ ألفافاً" وصرف سبحانه هذه الكلمات في كتابه العزيز وصرف هذه الأدلة منها الدلالة على وجوده وقدرته وحكمته، وأنه لا مشارك له ولا معاضد ولا مغالب فقال: "أأنْتمْ أشدُّ خلقاً أم السَّماءُ بناهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاها. وأغْطَشَ لَيْلَها وأخرَجَ ضُحَاهَا. والأرضَ بعدَ ذلكَ دحاهَا. أخرجَ منها ماءَهَا ومرعَاهَا. والجبالَ أرسَاهَا متاعاً لكم ولأنعامكم"، وقال تعالى: "وهوَ الذي مَدَّ الأرضَ وجعلَ فيها رواسيَ وأَنْهاراً ومِنْ كُلِّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجَيْنِ اثنينِ يُغْشي الليلَ النهارَ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكرونَ. وفي الأرضِ قِطَعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ مِنْ أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ونفضّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ"، وقال تعالى: "إنَّ في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التي تَجْرِي في البحْرِ بما ينفعُ النَّاسَ وما أنزلَ اُللهُ مِنَ السماءِ من ماءٍ فأحيا بِهِ الأرضَ بعدَ موتهَا وبثَّ فيها من كُلِّ دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخَّرِ بينَ السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ"، وقال تعالى: "هوَ الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً وقَدَّرَهُ منازلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحسابَ ما خلقَ اللهُ ذلكَ إلاَّ بالحقِّ يُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمونَ"، وقال تعالى:"تُولِجُ الليلَ في النَّهارِ وتولجُ النَّهارَ في الليلِ وَتُخْرِجُ الحيَّ من الميتِ وتُخرجُ الميتَ منَ الحيِّ وترزُقُ منْ تشاءُ بغيرِ حسابٍ" ، وقال تعالى: "إنَّ اللهَ فالقُ الحبِّ والنَّوى يُخرجُ الحيِّ من الميتِ ومخرجُ الميتِ منَ

الحيِّ ذلكمُ اللهُ فأنَّى تُؤفكونَ فالِقُ الإصباحِ وجَعَلَ الليلَ سكنًا والشمسَ والقمرَ حُسباناً ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ وهوَ الذي جعلَ لكُم النجومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ قدْ فصَّلْنَا الآياتِ لقومٍ يعلمون وهو الذي أنشأَكُم مِنْ نفسٍ واحدةٍ فمستقرٌ ومستودعٌ قد فصَّلْنا الآياتَ لقومٍ يفقهونَ" ،وقالَ تعالى: "هوَ الذي يُسيركُم فِي البَرِّ والبحْرِ حتَّى إذاَ كنتم فِي الُفلكِ وَجَرْينَ بِهِمْ بريحٍ طيبةٍ وفرِحُوا بِهَا جاءَتْهَا ريحٌ عاصفٌ وجاءَهُمُ الموجُ من كُلِّ مكانٍ وظَنوا أنَّهم أحيطَ بِهِمْ دَعَوا اللهَ مخلصينَ لَهُ الدينَ لئنْ أنجيتناَ مِنْ هذهِ لنكُونَنَّ مِنَ الشاكرينَ"، وقال تعالى: "وَإذا مسَّكم الضُّرُّ فِي البحرِ ضلَّ مَنْ تدعون إلا إِيَّاهُ"، وقال تعالى: "وآيةٌ لهمُ الأرضُ الميتُة أحييناها وأخرجْنا منهْا حباً فمنه يأكُلُونَ. وجعلْنَا فيها جناتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ وفجرنا فيها مِنْ العيون. ليأكلوا مِنْ ثمرِهِ وما عملَتْهُ أيديهِمْ أفلاَ يشكرونَ سبحانَ الَّذي خلقَ الأزواجَ كلَّها مما تنبتُ الأرض ومِنْ أنفسِهِم وممَّا لا يعلمون. وآيةٌ لهمْ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مظلمونَ. والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ذلِكَ تقديرُ العزيز العليمِ. والقمرَ قدرناهُ منازِلَ حتَّى عادَ كالعرجون. القديم لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. وآيةٌ لهم أنَّا حملنا ذريتَّهم فِي الفلكِ المشحونِ وخلقْنَا لهمْ مِنْ مثله ما يركبون. وإن نَشأ نُغْرِقْهُمْ فلا صريخَ لهمْ ولا هم يُنْقَذُونَ. إلا رحمةً منَّا ومتاعاً إلى حينٍ"، وقال تعالى: "أوَ لم يَرَوا أنَّا خلقنْا لهمْ ممَّا عملَتْ أيدينا أنعاماً فهم لها مَالكُونَ وذللناهَا لَهُمْ فمنها رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يأكلونَ. ولهم فيها منافعُ ومشاربُ أفلا يشكرونَ"، وقال تعالى: "أفرأيتُم ما تمنونَ. أأنتُم تَخْلُقُونَهُ أم نحنُ الخالقُونَ"، وقال تعالى: "أفرأيتُم الماءَ الذي تشربُونَ. أأنتُم أنزلتموهُ مِنْ المزنِ أمْ نحنُ المنزلون"، وقال: "أفرأيتُم النَّارَ التي تُورُونَ. أأنتُم أنشأتُمْ شجرَتَها أم نحنُ المنشئون"، وقال تعالى: "وَلَقَدْ خلقناَ الإنسان مِنْ سُلاَلَةٍ مِن طينٍ. ثم جعلناهُ نطفةً فِي قرارٍ مَكينٍ. ثم خلقنا النطفة علقةً" إلى قوله: "فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين"، وقال تعالى: "فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامهِ أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبًّاً ثم شققنا الأرض شقّاً" إلى قوله: "متاعاً لَكُمْ ولأنعامِكُمْ"، فوجه الدلالة من هذه الآيات جليٌّ لمن سبقت له السعادات. قال تعالى: "انظرْ كيفَ نصرِّفُ الآياتِ" وقد مدح اللهُ تعالى قوماً أدمَهم الفكر إلى معرفة العبر. قال سبحانه وتعالى: "ويتفكرونَ فِي خلقِ السموات والأرضِ ربَّنَا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانَكَ فقنا عذابَ النَّارِ".: "أفرأيتُم ما تمنونَ. أأنتُم تَخْلُقونَهُ أم نحنُ الخالقُونَ"، وقال تعالى: "أفرأيتُم الماءَ الذي تشربُونَ. أأنتُم أنزلتموهُ مِنْ المزنِ أمْ نحنُ المنزلون"، وقال: "أفرأيتُم النَّارَ التي تُورُونَ. أأنتُم أنشأتُمْ شجرَتَها أم نحنُ المنشئون"، وقال تعالى: "وَلَقَدْ خلقناَ الإنسان مِنْ سُلاَلَةٍ مِن طينٍ. ثم جعلناهُ نطفةً فِي قرارٍ مَكينٍ. ثم خلقنا النطفة علقةً" إلى قوله: "فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين"، وقال تعالى: "فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامهِ أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبًّاً ثم شققنا الأرض شقّاً" إلى قوله: "متاعاً لَكُمْ ولأنعامِكُمْ"، فوجه الدلالة من هذه الآيات جليٌّ لمن سبقت له السعادات. قال تعالى: "انظرْ كيفَ نصرِّفُ الآياتِ" وقد مدح اللهُ تعالى قوماً

أدهم الفكر إلى معرفة العبر. قال سبحانه وتعالى: "ويتفكرونَ في خلقِ السموات والأرضِ ربَّنَا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانَكَ فقِنا عذابَ النَّارِ".

"فصل": وقد حصلت معرفة الله سبحانه لقوم مخصوصين من طريق آخر وهم الملائكة وما جرى لهم من سؤال وجواب. وفي قصة إبليس كفاية له عن التنويع فيما يقيس والتجنيس، وحصل العلم اليقيني لآدم فيما حدث من أمره وتقادم فاستسلم وسالم. والأنبياءُ مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي الكل عرفوا الصانع معرفة اليقين، منهم المرسلون ثلثمائة وثلاثة عشر أغنى عيان الآيات عندهم عن الخبر، ففي نوحٍ ودعوته ونجاة أهل سفينته، وفي إبراهيم وناره وحياة أطياره، ويوسف وبراءته بشهادة غلامه وإجابته في قضاء حاجاته وإهلاك عدوه من جميع جهاته، ويونس وحوته، وزكريا وسكوته، ومريم وابنها، آياتٌ بيناتٌ، ويتبع هذا الجمع جمعٌ لا تُحَدُّ لهم كثرة كلهم أخبر عن وجود إلهٍ واحدٍ قادرٍ مريدُ عالمٍ حيٍّ. والأنبياءُ وأتباعهم هم حجج الخلق وعلماؤهم وأعيان العلماء ونبلاؤهم. ولو لم يكن هناك دليل على وجود الإله سوى اتفاقهم على وجوده بالصفات المذكورة كان ذلك كافياً في حصول العلم واليقين بخبرهم إذ كانوا جميعاً لا يُتَصَوَّرُ التواطُؤ منهم على الكذب واللهُ الهادي بفضلهِ.

الباب الخامس

في ذكر الأدلة على أنه واحدٌ سبحانه

ذكر الأدلة على أنه واحدٌ سبحانه. ومن حيث ثبت أنه موجود بصفة الوجوب ثبت أنه واحدٌ؛ لأن الصنعة مفتقرة إلى الصانع وليست مفتقرة إلى ما زاد على الصانع، فصار وجود ما زاد على الصنعة جائزاً والجائز الوجود لا يجوز أن يكون إلهاً مبدعاً قديماً. وأما أدلة الكتاب العزيز فكثيرة، من ذلك قوله تبارك وتعالى: "لو كانَ فِيْهِمَا آلهةٌ إلاَّ اللهُ لفسدَتَا" وهذا الدليل معتمد أرباب الكلام من أهل الإسلام، وقد نقل عن بعض علماءِ السلف أنه قال: نظرت في سبعين كتاباً من كتب التوحيد فوجدت مدارها على قوله تعالى: "لو كانَ فِيْهِمَا آلهةٌ إلاَّ اللهُ لفسدَتَا" دليل آخر في سورة المؤمنين قوله تعالى: "ما اتخذَ اللهُ مِنْ ولدٍ وما كان مَعَهُ من إلهٍ إذاً لذهبَ كُلُّ إلهٍ بما خلقَ ولعلاَ بعضُهُمْ على بعضٍ سبحانَ اللهِ عمَّا يصفُونَ" وفي الكلام حذفٌ وتقديره ولو كان معه آلهةٌ وإنما حذف للإيجاز. والإيجاز مستحسنٌ في كل مكان وههنا اكمل حسناً لئلاَّ يتكرر ذكر الإله؛ لأنه إبطالٌ على تقدير، وإنما ذهب كل إلهٍ بما خلق لأجل طلب الاستعلاء بالعلو والقدرة، وذلك منشأ المخالفة والمنافسة والتغالب والمغلوب لا يكون إلهاً."دليل آخر" قوله سبحانه: "قُلْ لو كانَ معهُ آلهةٌ كما يقولونَ إذاً لابتغَوا إلى ذي الرشِ سبيلاً" ومعناه أن الآلهة تطلب المنازعة والمخالفة في المراد فحينئذٍ يقع الفساد إذ يريد أحدهما حياة شخص ولآخر موته، أو إسعاده والآخر إشقاءَه، فإن قيل الشبهة على هذه الأدلة من وجهين: "أحدهما": يجوز أن يكون اثنان تتفق إرادهما فلا يقع خلاف فلا يقع فساد. "الشبهة الثانية": قالوا لما رأينا وجود الشيء وضده من الموت والحياة، والنور والظلمة، والخير والشر، وما يقتضي الحكمة وينافيها من النقض بعد البناء والعجز بعد القوة، جاز أن ينسب إلى مدبرين اثنين. والجواب عن الشبهة الأولى: استحالة الإرادة وجود اثنين لا تنفك ارادة أحدهما عن إرادة الآخر متكافئين في العلم والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير على وجهٍ لا تتقدم صفة الآخر في الأعيان والأذهان فإذا هما واحدٌ سموه اثنين.

والجواب عن الشبهة الثانية: أن صدور الشيء وضده أدل على قدرة الصانع، وقد نبه سبحانه على ذلك في عدة مواضع من الكتاب العزيز من ذلك قوله تعالى: "تُسْقَى بماءٍ واحدٍ ونفضِّلُ بعضَهَا على بعضٍ في الأُكُلِ".

الباب السادس

في ذكر أدلة البعث في الكتاب العزيز

ذكر أدلة البعث في الكتاب العزيز: وهي كثيرة من ذلك قوله تعالى: "ويقولُ الإنسانُ أإذا ما متُّ لسوفَ أُخْرَجُ حَيًّاً. أوَ لاَ يذكَرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاُه منْ قَبْلُ و لم يَكُ شَيئاً"، ومثله "أوَ لم يَرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ"المرادُ ها هنا أبي بن خلفٍ. وقيل العاص بن وائلٍ. ثم ذكر سبحانه وتعالى شبهةً فقال: "وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحيِيْ العظامَ وهيَ رميمٌ" فجاء الجواب من وجهين: "أحدهما": جدلاً يتضمن فساد شبهته من جهة أنه استبعد الإعادة والحياة في عظام وحشٍ وترك نفسه، وذلك أهم من إحياء الحيوان البهيم، لأن إيجاد الحيوان البهيم كان لأجل الإنسان. "الوجه الثاني": "قلْ يحييها الذي أنشأها أوَّل مَرَّةٍ" إلى آخر السورة فإن إيجاد المبادئ أصعب في مطرد العرف وحكم العقل من رد شيءٍ كان إلى ما كان على ما لا يخفى وقوله سبحانه: "الذي جَعَلَ لكمْ مِنَ الشجرِ الأخضرِ ناراً" معناه: إيجاد شيءٍ مما ينافبه وينافره، فلا بد من قوةٍ من خارج تغلب على المتنافرين المتنافيين بفعل ذلك، ثم قال سبحانه: "أوَ ليسَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مثلَهُمْ بلَى وهو الخلاَّقُ العليمُ" معناه: من قدر على خلق السموات والأرض قدر على خلق هذا النوع اللطيف والشكل الضعيف، وإذا قدر على إيجاده قدر على رده بعد نفاده. ثم أخبر سبحانه عن نفسه بماذا يخلق الأشياء وتكون فقال: " إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أنْ يقولَ لَهُ كُنْ فيكونُ"، وفي موضع آخر"إنَّما قولُنا لشيءٍ إذا أردناهُ أنْ نقولَ لَهُ كُنْ فيكونُ"، وعند ذلك سبح نفسه فقال: "فسُبحانَ الذي بيدِهِ ملكوتُ كُلِّ شيءٍ وإليهِ تُرْجَعُونَ"، فعم الموجود والمعدوم والإبداءَ والإعادة وجعل الرجوع خاتمة الكلام؛ لأن الإنكار له والأدلة أقيمت عليه.

ومن أدلة البعث في قوله سبحانه: "فسيقولونَ مَنْ يُعيدُنَا قل الذي فطرَكُمْ أَوَّل مَرَّةٍ"، ومن أدلة البعث قوله: "وهوَ الذي يَبدأَ الخلقَ ثم يعيدُهُ وهو أهونُ عليهِ ولَهُ المَثَلُ الأعلى في السمواتَ والأرضِ وهُوَ العزيز الحكيم"، وإنما قالَ سبحانه: "وَهُوَ أهَونُ عَلَيْهِ" ضرب مثلٍ، لأن المقدورات عندنا متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيءٍ مستحيلاً منا، وإيجاد شيءٍ من شيءٍ ممكناً، فاستعار له كلمة "أفعل" ضرب ذلك مثلاً. ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيءٍ لا من شيءٍ قال: "وَلَهُ المثلُ الأعْلَى" وذلك مطردٌ في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة

والرحمة والرضا والغضب، وكل صفةٍ وصف بها الإنسان من ذلك مثاله قولنا عالم، والواحد منا عالم، ولكن يطلق على المخلوق باعتبار معلومٍ ما، وإن علمه من جهة جهله من جهاتٍ، ثم عِلْمُهُ إما بطريق الخبر والنظر أو الاضطرار، والله سبحانه عالم بما كان وما يكون على وجهٍ لا يخفى عليه شيءٌ ولا يداخله الشك ولا الذهول ولا النسيان ولا يتقدم بزمانٍ ولا مكانٍ ولا نظيرٍ ولا حيزٍ ولا اضطرار. قال تعالى: "أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ"، فهذا معنى قوله: "وَلَهُ المثلُ الأعْلَى" ومن أدلة البعث قوله تعالى: "قُلْ سيرُوا في الأرض فانظُروا كيفَ بدأ الخلقَ ثم اللهُ يُنْشِيءُ النشأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ"، ومن أدلة البعث قوله تعالى: "وَمِنْ آياته أنكَ تَرَى الأرض خاشعة فإذا أنزلْنَا عليْها الماءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ إنَّ الذي أحْيَاهَا لَمُحي الموتىَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ"، ومن أدلة البعث في سورة الواقعة قوله: "أفرأيتُم ما تمنون" "أفرأيتُم ما تحرثُون" "أفرأيتم الماءَ الذي تَشْربون" "أفرأيتم النار التي تورونَ" ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح،وتشب بالنفخ، فالحجر والشجر كالقبر، والقدح والنفخ كالنفخة في الصور، وإنما ذكر الله سبحانه في هذه السورة هذه الأدلة الأربعة متوالية؛ لأنه بدأَ السورة بالواقعة وهي القيامة وقال: "ليسَ لوقعتِهَا كاذبةٌ. خافضةٌ رافعةٌ"، وإن الجاحدين كما قال كانوا يقولون: "قُلْ إنَّ الأولينَ والآخرينَ. لمجموعون إلى ميقاتِ يومٍ معلومٍ"، ومن أدلة البعث في سورة الأحقاف: "أوَ لمْ يَرَوْا

أنَّ اللهَ الذي خلقَ السمواتِ والأرض و لم يعيَ بخلقهِنَّ بقادرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الموتىَ بَلَى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ"، ومن أدلة البعث"ألم ترَ أنَّ اللهَ أنزل من السماءِ ماءً فتصبحُ الأرضُ مخضرَّةً". قال المصنف: والأدلة على البعث جوازاً ووجوباً: أما الجواز: فالنظائر الحسية. وأما الوجوب: فما وعد الله تعالى به من البعث والإعادة، وإكرام الطائعين بجنته وإهانة المجرمين بعقوبته وما اقتنع للخلق بتكرير وعده الصادق حتى حلف على ذلك في عدة مواضع من ذلك "زَعَمَ الذينَ كَفَروا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بلى وربِّي لَتبعثُنَّ ثمَّ لتنبؤنَّ بما عملتم" ومن ذلك "فوربَّ السماءِ والأرضِ إنَّهُ لحقٌ مِثْلَ ما أنكم تنطِقُونَ" ومن ذلك: "ويستنبئُونكَ أحَقٌّ هو قُلْ إيْ وربِّي إنَّهُ لَحقٌ". اللهَ الذي خلقَ السمواتِ والأرض و لم يعيَ بخلقهِنَّ بقادرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الموتىَ بَلَى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ"، ومن أدلة البعث"ألم ترَ أنَّ اللهَ أنزل من السماءِ ماءً فتصبحُ الأرضُ مخضرَّةً". قال المصنف: والأدلة على البعث جوازاً ووجوباً: أما الجواز: فالنظائر الحسية. وأما الوجوب: فما وعد الله تعالى به من البعث والإعادة، وإكرام الطائعين بجنته وإهانة المجرمين بعقوبته وما اقتنع للخلق بتكرير وعده الصادق حتى حلف على ذلك في عدة مواضع من ذلك "زَعَمَ الذينَ كَفَروا أنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بلى وربِّي لَتبعثُنَّ ثمَّ لتنبؤنَّ بما عملتم" ومن ذلك "فوربَّ السماءِ والأرضِ إنَّهُ لحقٌ مِثْلَ ما أنكم تنطِقُونَ" ومن ذلك: "ويستنبئُونكَ أحَقٌّ هو قُلْ إيْ وربِّي إنَّهُ لَحقٌ".

"فصل" و لم يكن لمنكرٍ شبهةٍ إلا مجرد تعجب واستبعاد قال اللهُ تعالى: "وإنْ تَعْجَبْ فعجبٌ قولُهم أَئذا كُنَّا تراباً أَئِنَّا لفي خَلْقٍ جَديدٍ" معناه: أن كان لك عجبٌ من شيءٍ فمن إنكارهم البعث فاعجب؛ لأنَّ العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس هذا مما ندر وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها واكتساءَ الأشجار بعد عُريها، وعود النهار بعد زواله والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي ولا مما خفي سببه، فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه، وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى، وقد قال بعض الحكماء: ثبت أن الله عز وجل حكيم، والحكيم لا ينقضُ ما بنى إلا لحكمه أتم من حكمةِ النقضِ ولا يجوز أن يكون أنقض ولا مماثله على ما لا يخفى.

الباب السابع

في ذكر أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب العزيز

ذكر أدلة نبوة محمدٍ من الكتاب العزيز: والكتاب العزيز كله دليلٌ على صدق رسالته بل كل سورةٍ منهُ دليل عليه لمكان العجز عن الإتيان بمثلها، وقد ورد التحدي بذلك في الكتاب العزيز في خمسة مواضع من ذلك قوله تعالى: "وإنْ كُنتُم في رَيْبٍ مما نزَّلْنا على عَبْدِنَا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعُوا شهداءَكُم مِنْ دُوْنِ اللهِ إنِّ كنتُمْ صادقينَ". الموضع الثاني: قوله عز وجل: "قلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذَا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً". الثالث:"أمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأتُوا بعشْرِ سُورٍ مثله مفترياتٍ وادعوا مَنِ استطعتُم منْ دونِ اللهِ إنْ كنتُم صادقينَ" . الموضعُ الرابعُ: " أمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأتُوا بسورةٍ مثلهِ وادعُوا مَنِ استطعتُم منْ دونِ اللهِ إنْ كنتُم صادقينَ" الموضع الخامس: "أمْ يقولونَ تقوَّلَهُ بلْ لا يؤمنون فليأتوا بحديثٍ مثله إنْ كانوا صادقينَ".

"دليلُ آخرُ" " قُل يا أيُّها الذينَ هادوا زَعَمْتُمْ أنَّكم أولياء للهِ منْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَّنوا الموتَ إن كُنْتُم صادقينَ ولا يتمنونَهُ أبداً بما قدمتْ أيديهم واللهُ عليمُ بالظالمينَ" فلو لم يَعْلمُوا أنهُ رسولُ اللهِ وأنَّ خبَرَه حقَّ وصدقُ لبادروا إلى ما يبطلُ دعواهُ ويكذبُ خبرهُ.

"دليلُ آخرُ" خاص باليهود والنصارى والعرب قوله تعالى: "الذينَ يتَّبعُونَ الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يجدونَهُ مكْتوباً عِنْدَهُمْ في التوراةِ والإنجيل" وقد علموا أنه لا يعرف الكتابة ولا النظر في الكتب و لم يكن من شأنه.

"دليلُ آخرُ" "محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ مَعَهُ أشداءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم تراهم ركَّعاً سجَّداً يبتغُونَ فضلاً من اللهِ ورضوَاناً سيماهُمْ في وجوهِهِمْ مِن أَثرِ السُّجُودِ ذلك مثلهم في التوراةِ ومثلهم في الإنجيل" إلى آخرة الآية فالدلالة من ذلك من وجهين: "أحدهما": أن هذه الصفات لا تكون إلا في الصادقين إذ كانت أعدل السمات واكمل الصفات. "الثاني": ذكرهم في التوراة والإنجيل كما سبق.

"دليلُ آخرُ" مختص باليهود قوله تعالى: "والذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يعلمونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ من ربِّكَ بالحقِ فلا تكونَنَّ مِنَ الممترِينَ" فلولا أنه يعلم أنهم يعلمون ذلك لما استجاز أن يخبرهم بأمرٍ يدعي معرفتهم به وهم لا يعرفونه.

"دليلُ آخرُ" قوله تعالى: "وإنْ يريدُوا أن يخدعُوكَ فإنَّ حَسْبُكَ اللهُ هو الذي أيَّدَكَ بنصرِه وبالمؤمنينَ. وألَّفَ بينَ قلوبِهِم لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما ألفتَ بين قُلُوبِهِم ولكنَّ اللهَ ألَّفَ بينهم إنه عزيزٌ حكيمٌ" قال ابنُ عبد البرِّ كان بين الأوس والخزرج من العداوة ما لم يكن بين أحدٍ من بني آدم فألَّفَ الله قلوبِهِم؛ لأجلِ نصرة نبيهِ محمد صلى الله عليه وسلم فصاروا يداً واحدةً وقلباً واحداً.

"دليلُ آخرُ" قوله تعالى: "هوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِ ليظهرَهُ على الدين كُلِّهِ ولو كرِهَ المشركونَ" وهذا خبرٌ عن الغيب وكان كما أخبر.

"دليلُ آخرُ" قوله تعالى: "وعدَ اللهُ الذينَ آمنوا منْكُمْ وعملُوا الصالحاتِ ليستخلفَّنهم في الأرضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلِهم وليمكنَنَّ لهم دينَهُمُ الذي ارْتَضَى لهمْ وليبدلَنَّهم منْ بعدِ خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركُونَ بي شيئاً" ومعلوم أن هذه سيرة أصحاب " في خوفهم أولاً، وأمنهم ثانياً، واستخلافهم في الأرض. وهذا ظاهر الدلالة.

"دليلُ آخرُ" قوله تعالى: "وإنكَ لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ. صراطِ اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرضِ" فنظرنا فيما دعا إليه فكانت مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم صراط العقلاءِ ومختار النبلاء، وهي الأخلاق المأمور بها في قوله سبحانه: "وقضَى ربك ألاَّ تعبدُوا إلا إياهُ وبالوالديْنِ إحساناً إما يبلغنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كلاهُما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهُما وقلْ لَهُما قولاً كريماً. واخفضْ لهما جناحَ الذُلِّ منَ الرحْمَةِ وقلْ ربِّ ارحمْهُمَا كما ربياني صغيراً. ربُّكمْ أعلمُ بما في نفوسِكُمْ إنْ تكونُوا صالحينَ فإنهُ كان للأوابينَ غفوراً. وآتِ ذا القربى حقَّهُ والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تبذرْ تبذيراً. إنَّ المبذرينَ كانوا إخوانَ الشياطينِ وكانَ الشيطانُ لربه كفوراً. وإما تعرضَنَّ عنهُم ابتغاءَ رحمةٍ من ربكَ ترجوهَا فقل لهم قولاً ميسوراً. ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقعدَ ملوماً محسوراً. إنَّ ربكَ يبسطُ الرزقَ لمنْ يشاءُ ويقدِرُ إنه كانَ بعباده خبيراً بصيراً. ولا تقتُلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزقُهم وإياكُم إنَّ قتلهم كانَ خطأً كبيراً. ولا تقربُوا الزنا إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً. ولا تقتلوا النفس التي حرمَّ اللهُ إلا بالحقِّ ومَنْ قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوليهِ سلطاناً فلا يُسْرِفْ في القتل إنه كان منصوراً. ولا تقربُوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ حتَّى يبلُغ أَشدَّهُ وأوفوا بالعهدِ إن العهدَ كان مسؤولاً. وأوفُوا الكيلَ إذا كِلْتُم وزِنُوا بالقسْطَاسِ المستقيمِ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً. ولا تقفُ ما ليسَ لك به علم إن السمعَ والبصرَ والفؤادَ كل أولئك كان عنه مسئولاً. ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تخرقَ الأرضَ ولنْ تبلغَ الجبال طولاً، كلُّ ذلكَ كانَ سيئُهُ عندَ ربِّكَ مكروهاً. ذلكَ مما أوْحَى إليكَ ربُّكَ من الحكمةِ ولا تجعلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ فتُلقى في جهنَّم ملوماً مدحُوراً"، وكذلك قوله تعالى: "إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبَى ويَنْهَى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ يعظِكُمْ لعلَّكمْ تذكَّرون" ومثل هذه السير العادلة والمكارم

المستحسنة لا تجري على لسان ممخرق.

"دليلٌ آخرُ" على اليهود قوله تعالى: "كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ إلا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسهِ مِنْ قبلِ أَن تُنَزَّلَ التوراةُ قلْ فأتُوا بالتوراةِ فاتلُوها إنْ كنُتم صادقينَ. فمنِ افترى على اللهِ الكذبَ مِنْ بعدِ ذلكَ فأولئكِ هم الظالمونَ" روي أن إسرائيل أخذه وجعُ العِرْقِ الذي يقال له النَّسا فنذر لئن شفاه اللهُ تعالى منه ليحرِّمنَّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب ذلك إليه لحوم الإبل وألبانها، فَشُفيَ فوفى بنذره. وادعت اليهود أن ذلك كان حراماً على نوحٍ حتى انتهى الأمر إليهم فبين الله تعالى بطلان دعواهم، وأمر أن يحاجهم بالتوراة فلم يجسروا على إخراجها، وفي ذلك الدلالة الظاهرة على صدق محمدٍ ".

"دليلٌ آخرُ" قوله تعالى: "فَارتَقِبْ يومَ تأتِي السماءُ بِدُخَانٍ مبينٍ" وهي: السنون التي دعا النبيُّ " بها على أهل مكة. والدخان: الجدبُ سُمِّيَ دخاناً؛ لأن الغبار يزيدُ في الجدبِ فيكونُ كالدخان.

"فصل" قد توجه القرآن العظيم على مائة دليلٍ وأربعة عشر دليلاً عدد سورهِ فالتحدي بالطوال منه كالتحدي بالقصار، فعلى هذا السور القصار إذا أخذت عدلها كلماتٍ على ترتيبها كانت معجزة ويقع بهذا التحدي أو سورةٍ من القصار وعدلها من أي القرآن من أي سورةٍ كان كانت معجزة، فإذن تبلغ أدلة التعجيز منه مبلغاً يزيدُ على الألف دليلٍ، وهذا من أسرار الكتاب العزيز وعجائب التتريل.

"دليلٌ آخرُ" قوله: "فإنْ لم تفعلُوا ولنْ تفعلُوا" أخبر أن المنكرين نبوتهُ لم يقدروا على معارضته وكذلك جرى.

"دليلٌ آخرُ" قوله تعالى: "إنَّا نحنُ نزَّلْنا الذكرَ وإنا له لحافظونَ" وهذا خبرٌ لم يسمع إلا من الرسول وكان الأمر كما أخبر.

دليلٌ آخرُ" أخبر أنه: "لا يأتيهِ الباطِلُ من بينِ يديهِ ولا مِنْ خَلْفِه" فكان الأمر كما أخبر بحمد الله ومنه.

"دليلٌ آخرُ" "آلم غُلِبَتِ الرومُ في أَدْنَى الأرضِ وهم مِنْ بعدِ غَلَبِهم سَيَغْلِبونَ في بضعِ سنينَ" وقصة مبايعة أبي بكر رضي الله عنه لأبي خلفٍ مشهورةٌ.

"دليلٌ آخرُ" "لتدخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمنينَ محلِّقينَ رؤوسَكُم ومقصِّرينَ لا تخافون فَعَلِمَ ما لَم تعلَمُوا" فكان كذلك.

"دليلٌ آخرُ" المباهلة قوله تعالى: "فمنْ حاجَّكَ فيه مِن بعدِ ما جاءكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تعالوا نَدْعُ أبناءَنَا وأبناءَكُم ونساءَنَا ونساءَكُم" الآية. وهذا دليلٌ يدلُّ بسياقهِ وبخصوصهِ على نصارى نجران.

"دليلٌ آخرُ" يخص اليهود وهو قوله تعالى: "قُلْ إن كانتْ لكمُ الدارُ الآخِرَةُ عندَ اللهِ خالصةً مِنْ دونِ

الناسِ فتمنَّوُا الموتَ إن كنُتم صادقينَ ولن يتمنَّوْهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهِمْ واللهُ عليمٌ بالظالمين" وهذا دليلٌ واضح وحجةٌ قاطعةٌ على اليهود، فلو لم يعلموا أنهم إن تمنوه ماتوا، وإلا كانوا تمنوه فيحاجوا به رسول الله " ويبطلوا نبوته، وكان ذلك أهم الأشياءَ عندهم.

"دليلٌ آخرُ" قوله تعالى: "قلْ للمخلَّفينَ منَ الأعرابِ ستُدعونَ إلى قومٍ أُولي بأسٍ شديدٍ تقاتلونهم أو يسلمونَ" وأصحاب البأس الشديد مسيلمةُ وأصحابهُ يوم اليمامة وقيل فارس والروم، وأيُّما كان فقد أخبر عن الغيب فيه فكان الأمر كذلك.

"دليلٌ آخرُ" قوله تعالى: "ألم ترى إلى الذينَ نافقُوا لإخوانهمُ الذين كفرُوا منْ أهلِ الكتابِ لَئنْ أُخرجتُم لنخرجَنَّ معكُم ولا نطيعُ فيكم أحداً أبداً وإنْ قوتلُتم لننصرنَّكُم واللهُ يشهَدُ إنهم لكاذبُونَ. لَئِنْ أُخرجُوا لا يخرجونَ مَعَهم ولئنْ قوتِلُوا لا ينصرونهم" وفي هذا دليلٌ ظاهرٌ على صدق الرسول " ؛ لأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا اللهُ، فإنهم أخرجوا فلم يخرجوا معهم وقوتلوا فلم ينصروهم.

"دليلٌ آخرُ" قوله تعالى: "هوَ الذي بعثَ في الأميينَ رسولاً منْهم يتلُوا عليهم آياتِهِ ويزكِّيْهِمْ ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ. وآخرينَ منهم لما يَلحقوا بهم" قيل هم من بعد الصحابة وقيل هم الأعاجم وعلى كلا الأمرين فقد وقع الخبر موافقاً للمُخْبَرِ به.

"دليلٌ آخرُ" قوله تعالى: "واللهُ يعصمُكَ مِنَ النَّاسِ" وقوله: "لَهُ معقباتٌ مِنْ بين يديْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ" وكان يحرس فقال: اذهبوا فإن الله تعالى قد عصمني فأخبر بعصمته فما قدر أحدٌ على قتلهِ مع كثرة أعدائه والقاصدين له بذلك كما عُرف.

"دليلٌ آخرُ" قوله تعالى: "أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُها" "أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيهِ اختلافاً كَثيراً" ولا خلف في خبره " وقد أخبر كما تقدم من القصص، واليهود يعرفون صحة ما أخبر من كتابهم هذا و لم يكن صاحب كتابةٍ ولا مشتغلاً بالكتب. وأخبر عن أمور منها ما كان، ومنها ما سيكون ومن أنعم النظر في الكتاب العزيز استنبط من أدلة صدق محمدٍ " أكثر مما ذكرناه، فأما أدلة رسالته من غير الكتاب العزيز فهي أكثر من أن تحصى وقد ألف في دلائل النبوة جماعةٌ من العلماء منهم أبو نعيم الحافظ الأصبهاني، ومنهم أبو بكرٍ بن فورك، ومنهم الحافظ أبو بكر البيهقي.

"فصلٌ" ومن فهم مذهب الفصاحة والبلاغة وأرشده الله تعالى ووفقه أمكنه أن يختار من الأخبار النبوية الصحاح ألف حديثٍ فما زاد تبلغُ مرتبة التعجيز عن الإتيان بمثلها فيكون ألف دليلٍ على النبوة مستمرة التعجيز مشهوداً لها بالتمييز، وإذا تقررت هذه الأدلة التي ذكرناها فكل دليل دلَّ على رسالة محمد " وعلى رسالة من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، فهو دليل على الصانع سبحانه.

الباب الثامن

في ذكر الأسئلة والأجوبة الجدلية من الكتاب العزيز

في ذكر الأسئلة والأجوبة الجدلية من الكتاب العزيز: سؤال المنع "وإذا قيلَ لهم لا تفسدُوا في الأرضِ قالوا إنما نحنُ مصلحُون" معناهُ: لاَ نسلمُ إنا مفسدونَ؛ لأنَّ الإصلاحَ ضدُّ الإفسادِ فإذا ادَّعوا الإصلاحَ فقدْ أنكروا الإفسادَ ثُّم منعُوا هذهِ الدعوى بقولهِ تعالى: "ألا إنَّهم همُ المفسدونَ" وفي هذا دليلُ جواز المنعِ منْ طريق المعنى، وفيهِ الردُّ على منْ يقولُ هذا بغيرتوجيهٍ لإهمالِ مراعاة صيغة لفظ المجادلِ، وهذا يطردُ في كلِّ موضعٍ هذا سبيله،ومثلهُ قولُ اللهِ تعالى عن الكفارِ حيثُ قالوا لرسلِ عيسى بن مريمَ: "إناَّ تطَّيْرنَا بِكُم" قالوا لهم: "طائرُكُم مَعَكم" أي: شؤمكُم منْكُم لا منَّا، ودليلهُ أنَّكم جعلْتُمُ التذكيرَ باللهِ وبعبادته علة الشؤْمِ أيْ: "أإنْ ذُكِّرْتُم بَلْ أنتمْ قومُ مسرفون"سؤال النقضِ في قولهِ تعالى: "الذين قالوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا ألاَّ نُؤْمِنَ لرسُولٍ حتى يأتينا بقربانٍ تأكلُهُ النارُ قل قدْ جاءَكُم رسلٌ منْ قبلي بالبيناتِ وبالذي قلتُم فَلِمَ قتلتموهُم إنْ كنتم صادقِينَ". معناه: العلة التي توجب عندكم الإيمان بالرسل قد وُجِدَتْ فَلِمَ قتلتموهم، فدل على أن التعليل بما ذكرتم غير صحيح. وهذا النقض وارد على معنى كلامهم، فدل على جواز إيراد ما يهدم كلام الخصم على أي وجهٍ كان. ومن صور النقض قوله: "وإذا قيلَ لهمُ اتبعُوا ما أنزلَ اللهُ قَالُوا بل نتبعُ ما ألفيناَ عليهِ آباءنَا" النقضُ في قوله: "أَوَلَوْ كان آباؤُهم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدونَ"، ومن صور النقض أيضاً في قوله: "ما كان للنبيِّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركينَ ولو كانُوا أولي قُرْبَى منْ بَعدِ ما تبينَ لهمْ أنَّهم أصحابُ الجحيمِ"، النقض بإبراهيم عليه السلام؛ لأنه استغفر لأبيه وهو مشركٌ في قوله تعالى: "سأستغفرُ لكَ ربي إنهُ كانَ بي حفياً"فكان الجواب: "وَمَا كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلاَّ عنْ موعدةٍ وعدَها إياهُ، فلما تبينَ لهُ أنهُ عدوٌّ للهِ تَبَرَّأَ منهُ إنَّ إبراهيم لأوَّاهٌ حليمٌ". ومن صور النقض قوله تعالى: "فلمَّا جاءهُمُ الحقُّ منْ عندنَا قالُوا لولا أُوتيَ مثلَ ما أوتيَ موسَى أوَ لم يكفرُوا بما أُتيَ مُوسىَ منْ قبلُ قالُوا ساحِرانِ تظاهَرَا وقالُوا إنَّا بكلٍ كافرُونَ". سؤال القول بالموجب في قوله تعالى: "قالُوا إنْ أنتمُ ألاَّ بشرٌ مثلُنَا تريدونَ أنْ تصدُّونَا عَمَّا كان يعبدُ آباؤنا فأْتُونَا بسلطانٍ مبينٍ" القول بالموجب"قالتْ لهم رسلُهم إنْ نحنُ إلاَّ بشرٌ مثلُكُمْ" تقديره: "يريدُ أنْ يصدَّكُم عما كان يعبدُ آباؤُكم" "ولكنَّ اللهَ يمنُّ على مَنْ يشاءُ منْ عِبَادِهِ وما كانَ لنا أنْ نأتيكُم بسلطانٍ إلاَّ بإذن اللهِ" "ومن" القول بالموجب في قوله تعالى: "الذين يؤذُونَ

النبيَّ ويقولونَ هوَ أُذُنٌ" القول بالموجب: "قل أذنُ خيرٍ لكم يؤمنُ باللهِ ويؤمنُ للمؤمنين" "سؤال المعارضة" في قوله تعالى: "فأتُوا بسورةٍ مثلِهِ" "فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مفترياتٍ" "فليأتُوا بحديثٍ مثلِهِ" وذلك أنه جعله دليلاً على نبوته، والدليل متى عورض بمثله بطل عمله فيسقط الاحتجاج به.

"فصلٌ" الحكم تارةً يعللُ بعلةٍ واحدةٍ منفردةٍ كقوله تعالى: "ولكُم في القصاص حياةٌ". وتارةً بعلتين، كقوله تعالى: "وإنْ أردتُمُ استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتُمْ إحداهُنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونَهُ وقد أفضَى بعضُكُم إلى بعضٍ وأخذنَ منكُم ميثاقاً غليظاً" فإن قيل : بل هي علةٌ واحدةٌ مركبةٌ من وصفين. فالجوابُ أن الإفضاءَ علة في استحقاق المهر في الصحيح من النكاح والفاسد لقول النبي : " "فَلَها المهرُ بما استحلَّ مِنْ فَرْجها" والميثاق الغليظ هو عقدةُ النكاح وهي كلمة الله عز وجل: "وهوَ قولُه بما اسْتَحْلَلْتُمْ مِنْ كلمةِ اللهِ" فهو قد يثبت بمجرده دون الإفضاء جميع المهر بالموت ونصفه بالطلاق.

"فصلٌ" وقد يعلل الحكم بعللٍ كل علةٍ تستقلُّ بالحكم كقوله تعالى: "وما مَنَعَهُمْ أنْ تُقْبَلَ منْهم نفقاتُهم إلا أنَّهم كفرُوا باللهِ وبرسُوْلِهِ ولا يأتونَ الصلاةَ إلاَّ وهُمْ كُسَالَى ولا ينفقونَ إلا وهمْ كارهون".

"فصلٌ" تعليق الحكم على علةٍ يقتضي النقيض كقوله تعالى: "وتأتونَ في ناديكم المنكر، فما كانَ جوابَ قومِهِ إلا أنْ قالُوا أئْتِنا بعذابِ اللهِ إنْ كنتَ مِنَ الصادقينَ"، وكقوله تعالى: "أخْرِجُوهُمْ مِنْ قريتكمُ إنَّهم أناسٌ يتطهرونَ"، وكقوله تعالى: "وإذْ قالُوا إنْ كانَ هذا هوَ الحقَّ فأمطرْ علينا حجارةً منَ السماءِ أو أئْتِنا بعذابٍ أليمٍ" ومثله: "فأسقطْ علينا كِسَفَاً منَ السماءِ إنْ كنتَ مِنَ الصادقينَ".

"فصلٌ" أجوبة الأسئلة على التفصيل كقوله تعالى: "أما السفينةُ فكانتْ لمساكين" "وأما الغلام" "وأما الجدارُ".

"فصلٌ" وقد تذكر صورة القياس وليس بقياس دلالةٍ كقوله تعالى: "فوربِّ السماءِ والأرضِ إنهُ لحقٌ مثل ما أنكُم تنطقون" فالحكم المقيس عليه أمرٌ وجودي: وهو النطقُ والذي وعدهم به هو الحياة بعد الموت، والبعث بعد الدفن، وهو أمرٌ معدومٌ وليس بينه وبين النطق مناسبةٌ، ومجرد وجود حقيقةِ شيءٍ لا يدلُّ على وجود حقيقةٍ أخرى، فعند ذلك يعلم أنه ما أراد إلا تحقيق الوعد بإيجاد على وجهٍ لا يشكُّ فيه كوجود النطق، كقول النبي : " "إنكمُ لترونَ ربَّكم كما ترونَ هذا القمرَ لا تضامونَ في رؤيتِهِ" ومعلومٌ أنه ما أراد أن رؤية القمر مقتضيةٌ لرؤية الله تعالى، بل أراد أنه كائن كوجود هذا القمر ورؤيته، ولو قيل: فإن فيه شبهة اقتضت القياس على النطق صح من جهة أن الكلام يغور ويعود، فهو كالميت له غيبةٌ بالدفنِ والبِلَى ثم حضورٌ بالبعثِ فعلى هذا قياسُ الشبه صحيحٌ.

"فصلٌ" ومثال قياس الشبه قوله تعالى: "يا بني آدمَ لا يفتننكُم الشيطانُ كما أخرجَ أبويْكُم من الجنة" وفيه دلالة على جواز إقامة اللازم للحكم أو السبب مقام نفس الحكم؛ لأنَّ فتنته سبب الخروج من الجنة وهي سبب المنع من دخولها، وذلك كلُّه توسعةٌ على المستدلّ.

"فصلٌ" في الترجيح وهو دليلٌ معتبرٌ في الشرع قد تكرر وجوده في الكتاب العزيز في مواضع من ذلك قوله عز وجل: "ولا تهنُوا في القومِ إنْ تكونوا تألمونَ فإنَّهم يألمونَ كما تألمونَ وترجونَ من اللهِ مَا لا يرجونَ" ومعناه: التحريض على القتال والتسلية لما اصاب من مكروه بالتساوي في الألم، والمزيةُ لكم عليهم بما ترجون من ثواب الله تعالى، فأنتم أَوْلى بطلبهم وأحرى بالصبر على المكروه من جهتهم، ومن الترجيح قوله تعالى: "أفمنْ يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ أمنْ لا يَهدِّي إلا أَنْ يُهدَى فما لكم كيف تحكمونَ" ومن الترجيح أيضاً قوله تعالى: "قلِ الحمدُ للهِ وسلامٌ على عبادهِ الذينَ اصطَفَى آللهُ خيرٌ أمَّا يشركونَ" في خمسِ مراتٍ أمّنْ. ومن الترجيح قوله تعالى: "أفمنْ أسَّسَ بنيانَهُ على تَقْوَى مِنَ اللهِ ورضوانٍ خَيْرٌ أَمنْ أسَّسَ بنيانَهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ فَانهارَ به في نارِ جهنَّم واللهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ" ومن الترجيح قوله تعالى: "يا صاحبيَ السِّجنِ أأربابٌ متفرقونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحدُ القهارُ" وذلك لما تقرر أن الاثنين لا بد من وجود الفساد منهما لوقوع الاختلاف بينهما. ومن الترجيح المذكور في الحجة العظمى"فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالأمنِ".

"فصلٌ" في المفهوم وهو ينقسم قسمين مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة، فالموافقة متفقٌ عليه لقوله تعالى: "فلا تقلْ لهما أفٍ"فمفهومه تحريم الضرب والسب؛ لأن التأفيف دون ذلك وكذلك قوله تعالى: "ومِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إنْ تأمنْهُ بقنطارٍ يؤدِّه إليكَ ومنْهم مَنْ إنْ تأمنْه بدينارٍ لا يؤدِّه إليكَ إلا ما دمتَ عليهِ قائماً" ولا يخفى أن من يؤدي القنطار يؤدي ما دونه ومن يخون في دينارٍ يخون فيما فوقه، ويسمى ذلك فحوى الخطاب. ومفهوم المخالفة كقوله تعالى: "ما دمتَ عليهِ قائماً" فمفهومه إن لم يكن عليه قائماً لم يؤده إليك، ومن الناس من يقول: ليس هو بحجةٍ لقوله تعالى: "فمنِ افْتَرى على اللهِ الكذبَ من بَعْدِ ذلكَ فأولئكَ همُ الظالمونَ"، ومعلومٌ أن من افترى على اللهِ الكذب فهو من الظالمين قبل الرسالة وبعدها وقبل نزول الكتاب وبعده.

"فصلٌ" وقد سمى الله سبحانه الشُبه التي أوردها الكفار أمثالاً، فقال تعالى: "وقالوا ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواقِ لولا أُنزل إليه مَلَكٌ فيكونَ مَعَهُ نذيراً. أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنَّةٌ يأكلُ منها وقالَ الظالمونَ إنْ تتبعونَ إلاَّ رَجُلاً مسحوراً" فكانَ الجواب: "انظرْ كيفَ ضَرَبُوا لكَ الأمثالَ فضلُّوا فلا يستطيعونَ سبيلاً"، وهذا جواب جدل يتضمن فساد ما تمسكوا به من الشُّبَهِ المذكورة؛ لأنهم قالوا إنه

مسحورٌ والمسحور مبلبل الفكر ذاهب الرأي فكيف يكون معه ملكٌ أو يلقى إليه كنزٌ، ثم جاءَ الجواب الآخر: "وما أرسلْنا قبلكَ مِنَ المرسلينَ إلاَّ إنَّهم ليأكلونَ الطعام ويمشونَ في الأسواق" فأما ما اقترحوه من الآيات في هذا الموضع وفي غيره فالجواب عنه مذكور في عدة مواضع، منها قوله تعالى: "وما مَنَعَنَا أنْ نرسلَ بالآياتِ إلاَّ أنْ كَذَّبَ بها الأولونَ" وقال في موضع آخر: "وقالوا لولا أُنْزِلَ عليهِ مَلَكٌ ولو أنزلْنَا مَلَكًا لقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرَونَ" ومثله قوله تعالى: "ولما وقعَ عليهمُ الرِّجْزُ قالوا يا مُوسى ادعُ لنا ربَّكَ بما عَهِدَ عندَكَ لئنْ كشفتَ عَنَّا الرجزَ لنؤمننّ لك ولنرسلنَّ معكَ بني إسرائيل. فلما كشفْنَا عنهُم الرجزَ إلى أجلٍ هم بالغوهُ إذا هم ينكُثُونَ. فانتقمْنَا منهمْ فأغرقْنَاهم في اليمِّ بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلينَ". والفرق بين الآيات الداله على صدق الرسل عليهم السلام المقترحات من الأمم وبين الآيات التي تبتكرها الأنبياء أن المقترحات لم تبق لهم عذراً في ترك الإيمان بعد الإتيان بها، إذ هي بمنزلة المشاهد الذي أجاز الخصم شهادته عليه، فإذا رد وجحد فقد عاند وصد فاستحق تعجيل الإنزال به، بخلاف سائر الآيات فإنها وإن كانت أدلةٌ إلا أن للناظر فيها فسحة النظر ومهلة التأمل، فلهذا لم يعجل عقابه وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: "ولو أنَّا أهلكناهُمْ بعذابٍ مِنْ قبْلِهِ لَقَالُوا ربَّنا لولا أَرْسَلْتَ إلَيْنَا رَسُلاً فنتبعَ آياتِكَ من قبلِ أن نَذلَّ ونَخزَى".

"فصلٌ" في ذم التقليد والمقلدين وقد عابهم الله عز وجل في كتابه العزيز في عدة مواضع منها قوله تعالى: "وإذا قيلَ لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ اللهُ قالُوا بَلْ نتبعُ ما ألفينا عليه آباءنا أوَ لو كانَ آباؤُهم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدون"، ومن ذلك في المائدة: "وإذا قيلَ لهم تعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرسولِ قالُوا حَسْبُنا ما وجدْنا عليهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهم لا يعلمونَ شيئاً ولا يهتدون"،ومن ذلك في حم الزخرف: "بلْ قَالُوا إنَّا وجدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهمْ مهتدونَ"، ثم ذكر سبحانه أن هذه الشبهة تمسك بها جميع الأمم قال سبحانه: "وكذلكَ ما أرسلْنا مِنْ قبلكَ في قريةٍ مِنْ نذيرٍ إلاَّ قالَ مترفُوها إنا وجدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارِهمْ مقتدون"، فكان الجواب عن شُبَهِهِمْ من وجهين: "أحدهما": قوله تعالى: "أوَ لوْ كانَ آباؤُهم لا يعقلونَ شيئاً ولا يهتدون". "الوجه الثاني" : "قل أوَلَوْ جئتُكم بأهْدَى مما وجدتُم عليهِ آباءَكم". وههنا نكتتان: "إحداهما" قوله: "بأهْدَى" ولا هداية آباءهم، وإنما ذكر ذلك توطئةً لاستماع حجتهِ وتلطفاً إلى هدايتهِ "النكتة الثانية": أعرضوا عن الجواب الملزم لهم إلى استماع ما هو أهدى إلى قولهم: "إنا بما أُرْسِلْتُم به كافرونَ".

"فصلٌ" في جواز التجوز وفي الكتاب العزيز من ذلك كثيرٌ من ذلك قوله تعالى: "إنَّ الذينَ يكتمونَ ما أَنزلَ اللهُ مِنَ الكتابِ ويشترونَ به ثمناً قليلاً أولئكَ لا يأكلونَ في بطونِهم إلا النَّارَ" وقد علم أنهم في الحالة الحاضرة لا يأكلون النارَ والشراءَ، والصبر على النارَ.

"فصلٌ" يجوز عطف الواجب على غير الواجب كقوله تعالى: "كُلوا مِنْ ثمرِه إذا أثمرَ وآتُوا حقَّه يومَ حصادهِ" وكقوله: "كُلوا من طيباتِ ما رزقْنَاكُمْ واشكرُوا للهِ إنْ كنتُم إياهُ تَعبُدونَ".

"فصلٌ" والإنكار بعد الاعتراف لا يسمع دليله قوله تعالى: "ثمَّ قيلَ لهمْ أينَ ما كنتُم تُشركونَ مِنْ دونِ اللهِ قالوا ضَلُّوا عَنَّا بل لم نكُنْ ندعُوا مِن قبلُ شيئاً كذلِكَ يُضِلِ اللهُ الكافرين" فعاقبهم على ضلالهم الأول بضلالٍ هو الإنكار بعد الاعتراف.
"فصلٌ" ومن لطائف الأجوبة الجدلية لما قال فرعون لموسى : "ألم نربِّك فينَا وليداً ولبثْتَ فينا مِنْ عُمُرِك سنينَ" كان جواب موسى عليه السلام: "وتلكَ نعمةٌ تمُنُّها عليَّ أن عَبَّدتَ بني إسرائيل" فالذي اعتده فرعونُ نعمةً جعلها موسى نقمةً هو جواب على معنى الكلام لا على لفظه.
"فصلٌ" ومن أنواع التجاوز قوله تعالى: "وعليها وعلى الفلكِ تُحملونَ" والأنعام ثلاثةُ أنواع: إبلٌ وبقرٌ وغنمٌ. والمركوب منها الإبل خاصة.
"فصلٌ" في المباكتة بالتشنيع منها قوله تعالى: ""قل" يا أهلَ الكتابِ هل تنقمونَ مِنّا إلا أنْ آمنَّا باللهِ وما أنزلَ إلينا وما أُنزِلَ مِنْ قبلُ وأن أكثرَكم فاسقونَ قُلْ هل أنبئُكم بشرٍ مِنْ ذلكَ مثوبةً عندَ اللهِ مَنْ لعنَهُ اللهُ وغضبَ عليهِ وجعلَ منهم القردةَ والخنازيرَ وعبدَ الطاغوتَ أولئكَ شرٌ مكاناً وأضلُّ عنْ سواءِ السبيلِ" فإذا وقع التشنيع على مذهبٍ بسببِ حكمٍ خالفَ فيه الفقهاء، أو قولٍ فيه نفرةٌ مثلُ المخلوقة من الزِّنا وجواز الخضخضة على مذهب الإمام أحمد، أو ما كان للخصم أن يشنع على مذهبه بما هو من هذا القبيل وقد صح أن النبي " قال لليهود:"يا إخوان القردةِ".
"فصلٌ" ومما يجري مجرى المقابلة في الأذى والجناس في الجزاءِ:"وقالتِ اليهود يدُ اللهِ مغلولةٌ غُلَّت أيديْهم ولُعِنُوا بما قالُوا" واللعن هو الطرد والبعد. ولما كانت يدُ اللهِ مبسوطةً بالقدرة على الإيجاد والإعدام والإشقاءِ والإسعاد كان القول بغلول يده سبحانه أبعد المحالات في نظر العقل فاستحقوا الإبعاد.
"فصلٌ" التخصيص بالذكر لا يدل على الاختصاص في الحكم كقوله تعالى: "لقدْ كفرَ الذينَ قالُوا إن اللهَ هوَ المسيحُ بنُ مريمَ" وقال سبحانه بعدها: "لقدْ كفرَ الذين قالُوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ".
"فصلٌ" يتضمن ثلاث شبهٍ والجواب عنها: "الشبهة الأولى" : أنه تارةً تحدى بجملة القرآن وتارةً بعشرِ سورٍ، وتارةً بسورة، والجوابُ أنه ذكر الآحاد والعقود ونفاها ليعلم العجز عن كله وبعضه. فإن قيل القديم لا يوصف بكلٍّ ولا بعضٍ قيل هذا كقولنا عالمٌ مريدٌ قادرٌ هذه بعضُ صفات القديم ولا نريد بَعْضية التجزي وكما تقول: القرآن مائةُ وأربع عشرةَ سورةً كذا كذا آيةٌ.
"الشبهة الثانية" : ما الحكمة أن هذا الكتاب العزيز لم يترل جملةً واحدةً وسائرُ الكتب نزلت جملةً جملةً

قال تعالى: "وقالَ الذينَ كفروا لولا نزلَ عليهِ القرآنُ جملةً واحدةً كذلكَ لِنُثَبِّتَ بهِ فؤادَكَ ورتلناهُ ترتيلاً. ولا يأتونَكَ بمثلٍ إلا جئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً".

الجواب الثاني قال أهل المعاني: القوم كانوا قبلنا عمالاً فكتبت كتب عهودهم وسلمت إليهم جملةً، وهذه الأمة أحباب ورسائل الأحباب لا تنقطع.

"الشبهة الثالثة" : شبهة القدرية، قالوا: كيف الجمع بين إرادة خلق الفعل والعقاب عليه؟ والجواب ثبت بالإجماع أنه حكيمٌ عادلٌ، والحكيم العادل غير متهم كيف وقد ذكر الظلم في الكتاب العزيز في مائتي موضعٍ وثمانين موضعاً. وذمَّهُ وذمَّ الظالمين، ونفى الظلم عن نفسه في ثمانيةٍ وعشرين موضعاً منها، ويستحيل أن يحرم شيئاً على نفسه ويقبحه من غيره ثم يفعله وهو أعدل العادلين وأجلُّ المنعمين، والخوض في هذا مَنْهِيٌّ عنه، لأنه بحرٌ مغرقٌ ولكشفهِ ميعادُ يوم تُبْلَى السرائر.

"فصلٌ" والدليل علن أن توبة الزنديق لا تقبلُ قوله عز وجل: "إنَّ الذينَ كَفَرُوا بعدَ إيمانِهِمْ ثمَّ ازدادُوا كفراً لنْ تُقْبَلَ توبتُهم وأولئكَ همُ الضالُّونَ" والمعنى فيه: أن قليل الكفر وكثيره سواءٌ في استحقاق القتل واستيجاب النار، والتوبة مقبولةٌ في قليله وكثيره، فلا معنى لزيادة الكفر إلا إبطانَ الكفرِ وإظهارَ الإيمان.

واللهُ تعالى أعلم بكتابهِ وأسرار خطابهِ.

"تمت الرسالة ولله الحمد والمنة"

الفهرس

To PDF: http://www.al-mostafa.com